العرب
الخميس 2020/10/22
السنة 43 العدد 11858

التأويل فعل يدفعه الارتياب وتعدد الفرضيات

الخطابات العالمة تعقد النص أكثر مما تبسطه

التأويل هو مجمل المسارات التي تحلل أحداثا مسرودة للوقوف على مضامينها المتعددة، ولكن لما كان التأويل فعلا بشريا هو أيضا قد يتعدد بتعدد المؤولين، فيختلف الفهم من مؤول إلى آخر. وقد يذهب التأويل، العالم منه على وجه الخصوص، إلى ما لم يقصده كاتب نص الانطلاق وقد يزيده تعقيدا.

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

السّرديّات حمّالة للذاكرة والهويّة، للحلّ والتّرحال، للتقارب والتباعد، للتآلف والتباغض، للأنماط المستقرّة والآفاق الممكنة.

تستحضر الأفعال والحوادث السابقة والبعيدة، الواقعية والمتخيلة وتدرجها في تفاعلات توهم بأنها تدور الآن وهنا، وتستعرضها وجها لوجه حين يكون الحكي شفويّا، أو عن بعد إذا استعارت وسائط مدوّنة، حتّى أن بعضهم شبّهها بآلات تسافر في الزمان والمكان، وتعطي المجتمعات الرمزية المترامية أسًا.

تعدد السرديات

التمييز بين السرديات الفعلية والتخييلية أهم قاعدة للفصل بين الأجناس السردية، فالأولى تدّعي الإحالة على مرجعيات واقعية، بينما تتبنى الثانية رجحان الأحداث المرويّة، وتقديمها على نحو يوهم باحتمال حدوثها، ولو أنها تفرط في ذلك على نحو يفيض على الميميزيس الأرسطي.

> قراءة نص ما وتأويله لا يقللان بالضرورة من الصعوبة، لأن علاقة النص بالفعل الحقيقي إشكالية في الغالب

ولئن كانت قدراتنا الإدراكية قريبة من عالمَي العمليّ والتخييليّ، فإنها تصطدم في الحالة الأولى بإكراهات الواقع الطبيعيّ والعلائقي، بينما تجد في الثانية فرصة للتحرر عبر مرور خيالي إلى عوالم لهو مستحيلة. ويغدو ممكنا حينئذ أن نقرأ أفكار الآخر، والتكلّم بكلّ اللغات، وفهم منطق الطّير، والارتحال عبر الأزمنة، والتكّهن بالغيب.

تعمل السّرديّة على إضفاء نظام معيّن على الفضاء والأحداث والأبطال، وإدماج الاحتمال والانتظام الطبيعي في سلسلة من التفاعلات المنطقية داخل توتر سردي، باعتماد التشويق (إرجاء حلّ مشكلة، أو البتّ في مصير شخصية) وإثارة الفضول (تقديم وضعيات تتشكل وشخصيات تسعى) والمباغتة (مراوغة انتظارات المتلقي)، وهي الخصائص المرتبطة بغياب الوثاقة واليقين في حياتنا، فكلّ شيء قابل للتحول والتغير وحتى الزوال في أيّ لحظة، بخلاف السرديات التقليدية كالحكايات المتسلسلة التي تهتك قواعد السرد الأساسية، فتقطعه حال بدايته، وتقنع بأبسط وصف، وتمر بغتة من التخييلي إلى الواقعي، وتسجن الحكاية في حلقات تدور حول نفسها.

فحكايات الصيغ والحكم تكتفي بأحداث بسيطة متشابهة في الغالب، وحكايات الحيوان تثمّن الفطنة، ولكن على حساب القيم الأخلاقية أحيانا، وتحوم حول الخداع والحيلة. والحكايات العجيبة والغريبة تقوم على القَطع مع الاتساق والاطّراد والقواعد المعيارية المعروفة.

أما التخييل، فإنه يحشد كل العوالم، بما فيها عالمه، بإخضاعها إلى منطقه الخاص، حيث يغدو الواقع واقعا تخييليا، والتخييل سردية تخييليّة، كما في الحلم أو اليوتوبيا، إذ يستدعي كلّ ما يشكّل عالَمنا الرمزي.

ولو أن هذه الميزة الأساسية لا تخص التخييل وحده، لأن السردية الحَدثية الواقعية يمكن أن تتناول التخييل والحلم والهلوسة والكذب كبناءات وقعت وصارت محلّ خبر وإعلام. بالطريقة نفسها يمكن أن نحلم أننا نحلم، وأننا نفعل عمليّا، وأننا نطيع معتقدات مقدّسة. هذه القدرة على الإمساك بمختلف العوالم انطلاقا من المنطق الخاص لعالم ما تدفعنا إلى مقارنة شتى عوالمنا ومُساءلة حدودها، وتأويل عالمنا الرمزي.

ولكن كيف ترتبط عوالمنا التي لا تقبل الاختزال، والتي تتخذ مرجعا لها نفس قدرات الفهم وتنتمي إلى نفس العالم الرمزي، ببعضها بعضا؟

النشاط التأويلي

الحلول الكلاسيكية كانت تحوم حول الانعكاس والتوافق البنيوي والإصداء الثيمي والاستعارة والرمز. ولكن لو أمعنّا النظر في نظريات التلقي لوقفنا على عدّة مستويات في الفهم والتأويل لأن الكاتب والمتلقي لا يملكان بالضرورة نفس القدرات، أو أن مشاغل كلّ طرف لا تطابق مشاغل الطرف الآخر.

وقراءة نص ما وتأويله لا يقللان بالضرورة من الصعوبة، لأن علاقة النص بالفعل الحقيقي إشكالية، وسوء الفهم كثيرُ الحدوث، والأصناف المستعملة هجينة، وإرادة التأثير على يقينيات المتلقي واردة، واستراتيجيات التفاخر بالذات أو تمجيد المنقود حاضرة على الدوام.

أضف إلى ذلك أن الخطابات العالمة تعقّد النصّ أكثر ممّا تبسّطه، مثل تحليل عالم الاجتماع التونسي عبدالوهاب بوحديبة لخرافات تونسية في كتاب "المخيال المغاربي" زعم فيه، استنادا إلى علم النفس وعلم التحليل النفسي وعلم الاجتماع، أن لها خلفيات جنسية، ما يوحي بأن جدّاتنا وأمّهاتنا كنّ يعانين من مكبوت جنسيّ فضحته خرافاتهن.

في تعليقه على هذا النوع من التأويل، أذكر أن الناقد توفيق بكار قال لي "يكفي أن نغيّر الغولة بغول حتى تقع التأويلات كلّها في الماء".

إن نظريات التلقي الأدبي، لاسيّما تلك التي تلحّ على القراءة كفعل خلق وتعدد، فتحت بابا مهمّا ولكن العلوم الاجتماعية لم تستفد منه إلا نادرا لعدة أسباب. أولها التقسيم الأكاديميّ للمهمّات، ما يجعل تحليل الأعمال التخييلية حكرا على كليات الآداب. وثانيها استعجال العلوم الاجتماعية والآداب العثورَ على أهمّ تأويل، بدل التعامل مع التأويلات كلها بالقدر نفسه. وأخيرا، تشتت البحوث التجريبية، فهي لم تتشكل بعد في تيار فاعل، ولو أن مسار التعدد التأويلي يسير بخطوات واعدة.

ولئن كان العالم التخييلي يستدعي العوالم الأخرى حول قصة معيّنة، فإن البحث عن المعنى ينحو نحو وجهة معاكسة، حين يسأل القارئ عن مضمون الأثر وأبعاده، لأنه يعود إلى تلك العوالم، ولكن بطريقة غير فريدة، فهو يمدّ جسور تعميم مختلفة. تعدد العوالم ذاك يضع رافعة أولى للتعدد. الرافعة الثانية، أنّ المعطيات التأويلية تتفرّع إلى أربعة أشكال رئيسية: التوصية، الرسم التّوضيحيّ، رصد الثيمات، والحكم الأخلاقي.

التوصية تقترح مسارا ميسّرا، توحي به السردية. ورسم الإيضاح يتخيّر انتظاما لافتا يمكن أن يستعمل كعلامة يُستدلّ بها داخل الأثر. رصد الثيمات يميز ظرف الفعل، المثقل بإمكانيات متعددة لا تستعمل منها السردية إلا القليل. وأخيرا الحكم الأخلاقي المعياري يؤيد أو يدين أثر الفعل على متلقيه.

ولو لخصنا ذلك لقلنا إن النشاط التأويلي يشغله الارتياب وعدم الوثاقة وفرضيات الفعل. أما رافعة التعدد الثالثة، فهي أن السردية تتألف من عدة فواعل ومشاهد وأحداث ووصف، ومن تفاصيل لافتة تكون مداخل ممكنة لعمل المؤول، والشرط في التأويل أن يتناولها كلّها وفق رؤية شاملة، ولكن المؤولين يفضلون في الغالب جمع التأويلات الجزئية، فيختارون الأبواب الجانبية أو الخلفية. والرافعة الرابعة والأخيرة كمصدر للتعدد تتأتى من تصنيف المتفرّد، حين يبني المؤول جسرا جامعا نحو عالم من العوالم التي تقترحها السردية.

ولئن كان المؤول يميل تلقائيًا إلى انتهاج مسالك نمطية، فإنه عادة ما يتيه في مساره، فيضطر إلى الابتكار لاستنباط طرق جديدة، ما يجعل المعنى الذي يغفل عنه هذا المؤول يهتدي إليه مؤول آخر، وهو أمر يعطي انطباعا بوجود سحابة من المعنى تتنقل فيها عدّة رؤوس، سحابة يضل في تلافيفها العارف وغير العارف، إذ فيها الحيوي وفيها الراجح وفيها المحتمل. وحتى إن التقت الأغلبية حول تأويل ليس صائبا بالضرورة، فثمة دائما أمل في ظهور صوت صغير يقول للواثقين إنهم عراة.

كل مؤول يحيك خيوط القصة وفق رؤيته (لوحة للفنان عمران يونس)

الأردن يقاوم التعصب والشعبوية بالفلسفة

عمان – أعلنت وزارة الثقافة الأردنية أخيرا عن إطلاق سلسلة إصدارات متخصصة بعنوان "الفلسفة للشباب"، وذلك ضمن سياسة النشر الجديدة التي أقرتها لجنة التخطيط في الوزارة مؤخرا، وستصدر على شكل كتيبات مختصرة وبأسلوب مبسط موجه للشباب.

ودعت الوزارة الباحثين والأكاديميين لتقديم مقترحات للمساهمة في التأليف ضمن السلسلة وفق نموذج خاص بهذه الإصدارات التي تتناول موضوعات فلسفية أساسية يسهل شرحها للشباب ومنها: ما الفلسفة، ما المعرفة، ما الوجود، ما المنطق، ما الأخلاق، ما الجمال وغيرها من العناوين.

وتأتي السلسلة ضمن سياسة النشر الجديدة للوزارة للعام 2020، ويتم بموجبها اختيار موضوعات فلسفية مبسطة موجهة للشباب الأردني والعربي، من شأنها إغناء المعرفة لديهم، وتحسين قدراتهم في تحصيل المعرفة المعاصرة وفهم التحولات السريعة التي تشهدها الحياة المعاصرة.

وقال وزير الثقافة الدكتور باسم الطويسي في تصريح صحافي له إن هذه السلسلة تمثل فضاء تنويريا جديدا في جانب معرفي مهم طالما حظي باهتمام مفكري الإسلام وعلمائه ومفكري النهضة، مؤكدا أن أهمية هذه المعارف تزداد في ظل التدفق المعلوماتي وتسارعه وحوار الثقافات واتساع العولمة وتزاحم الأفكار والتيارات.

وأضاف أن الوزارة إذ تطلق هذا المشروع الثقافي مع دخول الدولة الأردنية مئويتها الثانية، فهي تؤكد الثقة بالذات، وسط تحولات سريعة وهائلة يشهدها العالم والإقليم من حولنا، ووسط فوضى معرفية وغياب نظرية تفسر التغيير والظواهر الجديدة في العالم.

وأوضح الطويسي أهمية إعادة الاعتبار للفلسفة مع ازدياد انتشار أدوات نشر المعلومات السطحية وسهولة الوصول إليها وازدياد حركات التطرف الديني والثقافي، والحركات الشعبوية التي تجتاح العالم من حولنا.

وأكد أن إحياء الاهتمام بالفلسفة ومناهجها وطرائق التفكير التي تتيحها يشكل اليوم إحدى أهم الأدوات التي تمنح الشباب قدرة على مواجهات تحديات العصر وفهم العالم المعاصر، وطبيعة التغير السريع والتحولات المتلاحقة التي يشهدها، إلى جانب الدور الأساسي للفلسفة في تزويد الشباب بأدوات التفكير النقدي والتمييز الإيجابي، وفهم الصالح العام.

ودعا الطويسي الباحثين والأكاديميين المتخصصين في قضايا الفكر والفلسفة إلى المشاركة في تأليف هذه السلسلة من خلال اختيار أحد الموضوعات المقترحة، أو أي موضوعات ملائمة للشباب، لافتا إلى أن عددا من الأسس والمعايير الفنية والأخرى المتعلقة بالمحتوى والمتطلبات الإدارية والإجرائية وحقوق الملكية وأهداف السلسلة والمستهدفين بها، ستكون موجودة على الموقع الإلكتروني للوزارة.

> سلسلة «الفلسفة للشباب» تختار موضوعات فلسفية مبسطة موجهة للشباب الأردني والعربي من شأنها إغناء المعرفة لديهم

وتشتمل السلسلة على عدد من المفردات والمفاهيم التي صيغت على شكل أسئلة: ما الفلسفة؟ ما الوجود؟ ما المنطق؟ ما الأخلاق؟ ما الجمال؟ ومن المتوقع أن تحتوي على قراءات تعريفية لعدد من الأكاديميين والباحثين في موضوعات مدارس الفلسفة الإسلامية، مدارس الفلسفة القديمة، مدارس الفلسفة الحديثة، تيارات الفلسفة الغربية المعاصرة، موضوعات فلسفة العلوم المعاصرة، الفلسفة والتكنولوجيا، فلسفة الذكاء الصناعي، الفلسفة والابتكار، الفلسفة والمشكلات المعاصرة، والفلسفة والحياة.

الجدير بالذكر أن الوزارة فتحت الباب للباحثين للمشاركة من خلال تقديم اقتراحات للتأليف بطريقة الاستكتاب.

الفلسفة وسيلة تنوير

كتاب وناشرون مغاربة يعتبرون القراءة «فعل مقاومة»

الرباط – يعتزم الاتحاد المهني لناشري المغرب إطلاق عملية "القراءة فعل مقاومة" في 6 نوفمبر القادم، وهي مبادرة ستقام تخليدا للذكرى الـ45 للمسيرة الخضراء، كشكل آخر من أشكال المقاومة والمسيرة الذي يطلق عليه مهنيو الكتاب: المقاومة من خلال القراءة.

وحسبما أكده الاتحاد في بلاغ صحافي، تهدف هذه العملية، التي يشارك فيها العديد من المتدخلين في سلسلة الكتب، من الناشرين إلى القراء، بما في ذلك المؤلفين والمكتبيين، والتي ستستمر حتى 20 ديسمبر 2020، إلى النهوض بفعل القراءة لدى أكبر عدد من المغاربة، في جميع جهات المملكة، وإدماجهم في حركة تضامنية وأخوية، في المعركة لإنقاذ الكتاب.

وقال الناشر ورئيس الاتحاد عبدالقادر الرتناني، في تصريح لوكالة المغرب العربي للأنباء، إن هذا الحدث الثقافي، الأول من نوعه على المستوى الوطني، يستمد فلسفته من المقاومة المتمثلة في المسيرة الخضراء، ويطمح لأن يشكل فعلا تضامنيا يجمع كل المتدخلين في سلسلة الكتب.

وبعد أن ذكر بأن هذه العملية، وهي ثمرة شراكة مع وزارة الثقافة والشباب والرياضة، ستعرف مشاركة ناشرين ومكتبيين من 12 جهة بالمغرب لمدة 45 يوما (في إشارة إلى الذكرى الـ45 للمسيرة الخضراء)، أعرب الرتناني، الذي "يؤمن بأن الكتاب لن يموت"، عن الأمل في أن يساهم من خلال هذا العمل التضامني، في إحياء مقاولات القطاع التي تضررت بالأزمة الصحية بعد أن انخفض حجم مبيعاتها بنسبة 70 في المئة.

وقال "ننطلق من كون الأشهر الأخيرة كانت صعبة على جميع القطاعات، في المجال الثقافي كما في المجالات الأخرى، ونحن مقتنعون بأنه لا ينبغي بأي حال من الأحوال الاستسلام بل محاولة بث روح معنوية من خلال التركيز على المشاركة الجماعية"، معربا عن ترحيبه بالتضامن الدولي الذي ولدته هذه المبادرة من جانب العديد من جمعيات الناشرين، ولاسيما الفرنسية والسنغالية، والإيفوارية أو الكاميرونية والتونسية والمصرية.

ولتشجيع المكتبيين على إعادة الاتصال بالكتب، ستشكل هذه الحملة الثقافية فرصة للمكتبات والناشرين لتزويد القراء من جميع مناطق المغرب بمجموعة مختارة من الكتب لمدة 45 يوما، بما في ذلك الإصدارات الأخيرة، مشيرا إلى أنه سيتم إرسال كتالوغ شامل يعرض هذه الكتب إلى جميع الشركاء ومن ثم نشره على الإنترنت.